

الفصل السابع

شخصية الزهراء

من الواضح اليّ أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ؛ لأنها بنت نبي، وزوجة إمام، وأم شهداء.

ولكن لا يتضح هذا الوضوح، ولا يبين هذا البيان، أنها تأخذ مكانها هذا «بحقها الشخصي» أو بصفتها التي كان لها أثر في حوادث التاريخ.

وهذا الذي نحب أن نقرره في الكتابة عن الزهراء، فهي أصل قوي من أصل الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أجيالاً طويلاً ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا، وفيما يلي من العصور.

لم يعرف التاريخ نظيراً لثبات بني علي وفاطمة على حقهم في الإمامة، أو في الخلافة.

حوربوا فيها زمنًا، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه، كيزيد بن معاوية، فأنفوا أن يتركوها استخذاءً وخضوعًا، وحاربوا فيها كما حوربوا، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة، ثم مائتين، ثم ثلاثمائة سنة، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية.

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بني أمية ثم من بني العباس، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وأتباع، وقد جدوا غاية الجد في نكالهم بأبناء علي وفاطمة في كل مكان، وصنعوا بهم ما كان خليقًا أن يستأصلهم استئصالاً أو يرغمهم على اليأس والتسليم.

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين، وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكينوا ويسلموا للسيف، ويقعدوا مع الخالفين.

ولولا خصال فيهم لما كان هذا منهم.

فإذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثته، ولا بد لها من نصيب من الوراثة، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علي، بل هي إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام.

بعض الأخبار يفيد إن صح وإن لم يصح، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا: إن علياً جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاتها.

إن صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة، وهي اعتقاد الناس في ذلك العصر أن القضية قضية الزهراء وأن الإمام يجاملها فلا يغضبها، وأنه كان يرى أن الخلافة أحق بأن يطلبه معرفة بحقه، فإن لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعي إليها.

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقي إليه بالألأ، وهو في هذا الباب أدل من كثير، كالخبر الذي رُوِيَ عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير.

رووا أن الصديق رضي الله عنه قام على المنبر يخطب الناس، فما هو إلا أن حمد الله وأخذ في خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتاً نحيلاً يهتف: «ليس هذا منبر أبيك، انزل عن منبر أبي.»

والتفتوا فإذا بالصائح هو الحسن بن علي، ولما يبلغ الثامنة، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع في نفسه: «ابن بنت رسول الله؟ صدقت والله. ما كان لأبي منبر، وإنه لمنبر أبيك.»

وسمع علي بالخبر فأرسل إلى أبي بكر رسولاً يقول له: «اغفر ما كان من الغلام، فإنه حدث، ولم نأمره.»

قال أبو بكر: «إني أعلم، وما اتهمت أبا الحسن.»

وليست الزهراء ولا ريب هي التي أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال. ولكن الطفل يفهم عن أمه في هذه السن ما يغنيه عن الأمر والإيحاء، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشاً يتكرر بين أبويه في هذا الأمر، فوقر في نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة، ثم نهى عنها فلم يعاودها.

في خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم.

شخصية الزهراء

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، وكانت مفضولة على يقين التدين، وكانت ذات إرادة لا تهمل في حساب شأن من شأنها، فظهر منها في المواقف القليلة التي نقلت عنها أنها كانت ذات إرادة لا تنسى في الحساب.

كان من اعتزازها بالانتساب إلى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها، وكانت تذكر ذلك حين تداوهم وتلاعبهم، فلم يكن أحب إليها من أن يقال لها: إن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله.

وكانت فطرة التدين فيها وراثية من أبوين: كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة، ولكنها أضافت إليه ما ورثته من أمها؛ أمها بنت خويلد الذي تصدى لعاهل اليمن غيراً منه على الكعبة، وابنة عم ورقة بن نوفل الذي شغل بالدين في الجاهلية حتى فرغ له حياته، غير مدعو ولا مأمور.

ومن فطرة التدين في وريثة محمد وخديجة أنها شديدة التحرج^١ فيما اعتقدته من أوامر الدين، حتى وهمت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت: «دخل رسول الله ﷺ فأكل عرقاً^٢ فجاء بلال بالأذان، فقام ليصلي، فأخذت بثوبه فقلت: يا أبة! ألا تتوضأ؟ قال: ممّ أتوضأ يا بنية؟ فقلت: مما مست النار. فقال لي: أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار؟»

فهي فيما تجهله تتحرج ولا تترخص^٣ وتؤثر الشدة مع نفسها على الهوادة معها. وقد ذكر غير واحد من الصحابة، وذكرت السيدة عائشة، أنها كانت أشبه الناس بمحمد في مشيتها وحديثها وكلامها، وزادت عائشة فقالت: ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأتها تبكي ثم تضحك إلى جوار رسول الله ﷺ في مرض وفاته، ثم علمت أنها ضحكت؛ لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب.

^١ التحرج: تحرج: فعل فعلاً يتحرج به من الحرج؛ أي الإثم.

^٢ عَرَقًا: العرق: بفتح العين وتسكين الراء: العظم أخذ معظم لحمه، يكسر ويطبخ ويؤكل ما عليه من اللحم الرقيق.

^٣ تترخص: الترخص في الأمر التسهيل والتيسير خلاف التشديد.

أمَّا أنها كانت رضي الله عنها ذات إرادة لا تهمل، فقد بدا ذلك في أمر زواجها، وفي حاجتها لزوجها، ومحاجَّتها لأبي بكر وعمر، وفيما كان يتوخاه علي من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها.

وقد يكون من دلائل الإرادة في المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تُسأل، وأنها لا تعجل إلى الحديث فيما تعلم فضلًا عما لا تعلم، ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد، ولم تزد عليه.

ولا ننسى أن الزهراء قد غوضرت^٤ وهي في الثلاثين أو قبل الثلاثين، فإذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة وهي في تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيتها، وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين.

^٤ غوضرت: توفيت مبكرة.